العرب
الجمعة 2019/10/04
السنة 42 العدد 11487

# أبعد من إزاحة ضابط عراقي...

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

الوضع غير طبيعي في العراق. هناك ما يشبه ثورة شعبية واسعة. من إزاحة الفريق عبدالوهاب الساعدي قائد عمليات جهاز مكافحة الإرهاب ووضعه بإمرة وزارة الدفاع... إلى التظاهرات والاضطرابات التي شهدتها بغداد ومدن أخرى وسقط فيها قتلى وجرحى، هناك ما يشير إلى أن الوضع القائم حاليا لا يمكن أن يستمرّ إلى ما لا نهاية. يبدو أن النظام السياسي الذي قام بعد سقوط نظام صدّام حسين لم يستطع إيجاد مقومات الحياة. هناك بلد اسمه العراق في بحث عن نظام جديد، أو على الأصحّ، عن صيغة جديدة بعد واحد وستين عاما على سقوط النظام الملكي في الرابع عشر من تمّوز – يوليو 1958.

منذ اليوم الذي سقط فيه النظام الملكي والمجزرة التي تعرّضت لها العائلة الهاشمية على يد ضبّاط من الرعاع لا يعرفون شيئا عن العالم المتحضّر، يبحث العراق عن خشبة خلاص. تبيّن، بكل بساطة، أن النظام الذي أقامه الأميركيون في 2003 لا يقل سوءا، بل هو أسوأ من نظام صدّام حسين الذي كان فيه جيش وطني. صحيح أن من كان يتحكّم بهذا الجيش فعلا مجموعة صغيرة تنتمي إلى فئة معيّنة، قسم لا بأس به منها من أهل تكريت، لكنّ الصحيح أيضا أنّ العراق لم يكن تحت حكم ميليشيات مذهبية تتحكّم بها إيران.

**ليست المسألة مسألة إزاحة ضابط محترف في الجيش العراقي قاتل بالفعل تنظيم «داعش» في الموصل بعيدا عن أي نوع من الطائفية والمذهبية. المسألة أن إيران تريد القول إن الأمر لها في العراق**

يدفع العراق إلى الآن ثمن الخطأ الذي ارتكبته إدارة جورج بوش الابن التي أقدمت على مغامرة مجنونة، لا تشبه سوى مغامرة صدّام حسين في الكويت صيف العام 1990. اجتاح صدّام الكويت من دون أخذ في الاعتبار لما سيفعله في اليوم التالي. كان يجهل كلّ شيء عن الكويت، بما في ذلك أنّه لن يجد مواطنا كويتيا واحدا على استعداد لأن يكون متعاونا مع الاحتلال أو واجهة له.

بالنسبة إلى العراق، لم يكتشف الأميركيون أن الميليشيات التابعة لإيران التي أدخلوها إلى بغداد والبصرة على دباباتهم لا تستطيع بناء نظام ديمقراطي يكون نموذجا للدول الأخرى في المنطقة. كلّ ما تستطيع هذه الميليشيات عمله هو تحويل العراق إلى تابع لإيران لا أكثر.

هناك في الوقت الحاضر رغبة إيرانية في التأكيد للولايات المتحدة أن العراق ليس سوى ورقة من أوراق "الجمهورية الإسلامية"، وأنّ استمرار العقوبات الأميركية سيدفع إيران إلى الردّ. إلى الآن، اكتفت إيران بعمليات صغيرة في العراق. كان أهمّ ما قامت به إطلاق صواريخ في اتجاه منشآت لشركة "أرامكو" السعودية. أدّى ذلك إلى تعطيل قسم كبير من الصادرات النفطية السعودية لبضعة أيّام. لكنّ الملفت أن المملكة استطاعت إصلاح الأضرار سريعا، كما أن سعر برميل النفط لم يتأثر كثيرا. وهذه ضربة كبرى للسياسة الإيرانية التي راهنت على أن الاعتداءات على الناقلات في مياه الخليج وعلى المنشآت السعودية، تحديدا، سيكون لها تأثير كبير على سعر برميل النفط.

جاء الآن دور إظهار إيران لمدى قوّة نفوذها في العراق وعمقه. من المهمّ بالنسبة إليها إظهار النظام في العراق بأنّه نسخة طبق الأصل عن النظام الإيراني حيث "الحرس الثوري" هو كل شيء. ليست إزاحة الفريق الساعدي، الضابط المحترف الذي يمتلك احتراما حقيقيا في كلّ الأوساط العراقية، سوى دليل على وجود إصرار إيراني على إلحاق مؤسسة الجيش العراقي بـ"الحشد الشعبي"، النسخة العراقية لـ"الحرس الثوري" الإيراني. كانت ردة فعل الشارع العراقي طبيعية. لا تزال هناك روح وطنية لدى جميع العراقيين من كلّ الطوائف ترفض الهيمنة الإيرانية وتقاومها. وعبّر عن ذلك الزميل مصطفى فحص في مقال له في "الشرق الأوسط" بقوله: "شكّل الجنرال الساعدي في وعي العراقيين المقهورين والناقمين على انحلال الدولة فرصة خلاصهم وبديلا من طبقة سياسية طائفية وفاسدة".

ما نشهده في العراق حاليا هو البحث عن بديل من سلطة مفلسة. تبحث هذه السلطة عن دور ما وهي لا تريد الاقتناع بأنّ إيران لا يمكن أن تقبل العراق إلّا كتابع لها. في النهاية، لا يستطيع رئيس الوزراء العراقي عادل عبدالمهدي القيام بأي وساطة بين إيران ودول الخليج العربي، ولا يستطيع التوسّط بين إيران والولايات المتحدة. كلّ ما يستطيع عمله هو تنفيذ ما هو مطلوب منه إيرانيا، أي التخلّص من ضابط مثل عبدالوهاب الساعدي يرمز إلى إمكان أن يلعب الجيش العراقي دورا على الصعيد الوطني، بعيدا عن الحسابات الطائفية والمذهبية والمناطقية والحساسيات المرتبطة بالجانب القومي. يستطيع أيضا تنفيذ طلب إيران فتح معبر القائم على الحدود مع سوريا، وتحميل إسرائيل مسؤولية الضربات التي تستهدف "الحشد الشعبي".

من يعود إلى تاريخ الجيش العراقي الذي تأسّس في العام 1921، يكتشف أنّ هذا الجيش، على رغم ارتكابه جريمة انقلاب العام 1958، بقي محافظا على حدّ أدنى من الاحتراف، حتّى في عهد صدّام حسين الذي اخترع لنفسه رتبة "مهيب" كما جعل من أقاربه مثل علي حسن المجيد أو حسين كامل ضباطا من ذوي الرتب العالية، علما أنّهم لا يستأهلون أن يكونوا أكثر من حرّاس لشخصيات سياسية، أو بوابين في مؤسسة رسمية.

كان القرار القاضي بحلّ الجيش العراقي، الذي اتخذه المفوّض السامي الأميركي بول بريمر في العام 2003، من بين الأسباب التي أدّت إلى الوضع الراهن في العراق. استفاق الأميركيون متأخرين على الجريمة التي ارتكبوها بحجة القضاء على أيّ أمل بقيام قيامة لنظام صدّام حسين. لم يدركوا، وقتذاك، أن كبار الضباط العراقيين لم يكن لديهم أي تقدير للرئيس العراقي الراحل الذي أخذهم إلى الحرب العراقية – الإيرانية بين 1980 و1988، ثمّ إلى اجتياح الكويت والحرب التي تلت تلك المغامرة.

ليست المسألة مسألة إزاحة ضابط محترف في الجيش العراقي قاتل بالفعل تنظيم "داعش" في الموصل بعيدا عن أي نوع من الطائفية والمذهبية. المسألة أن إيران تريد القول إن الأمر لها في العراق.

كشف خروج الفريق الساعدي من موقعه ضعف الحكومة العراقية، وهو ضعف ظهر بوضوح ليس بعده وضوح بعد وضع طهران فيتو على شخصيات عراقية معيّنة في مرحلة ما بعد انتخابات أيّار – مايو 2018. فرضت إيران عادل عبدالمهدي رئيسا للوزراء بصفة كونه مقبولا منها. هل يكون فشل الرجل في أن يكون صاحب قرار مستقلّ يحافظ على حدّ أدنى من التوازن الداخلي، خصوصا في ما يخصّ حماية الجيش، مؤشرا إلى أن النظام القائم منذ 2003 أفلس حقيقة، وأن لا بدّ من البحث عن صيغة جديدة للعراق، قد لا ترى النور إلّا على أنقاض العراق...

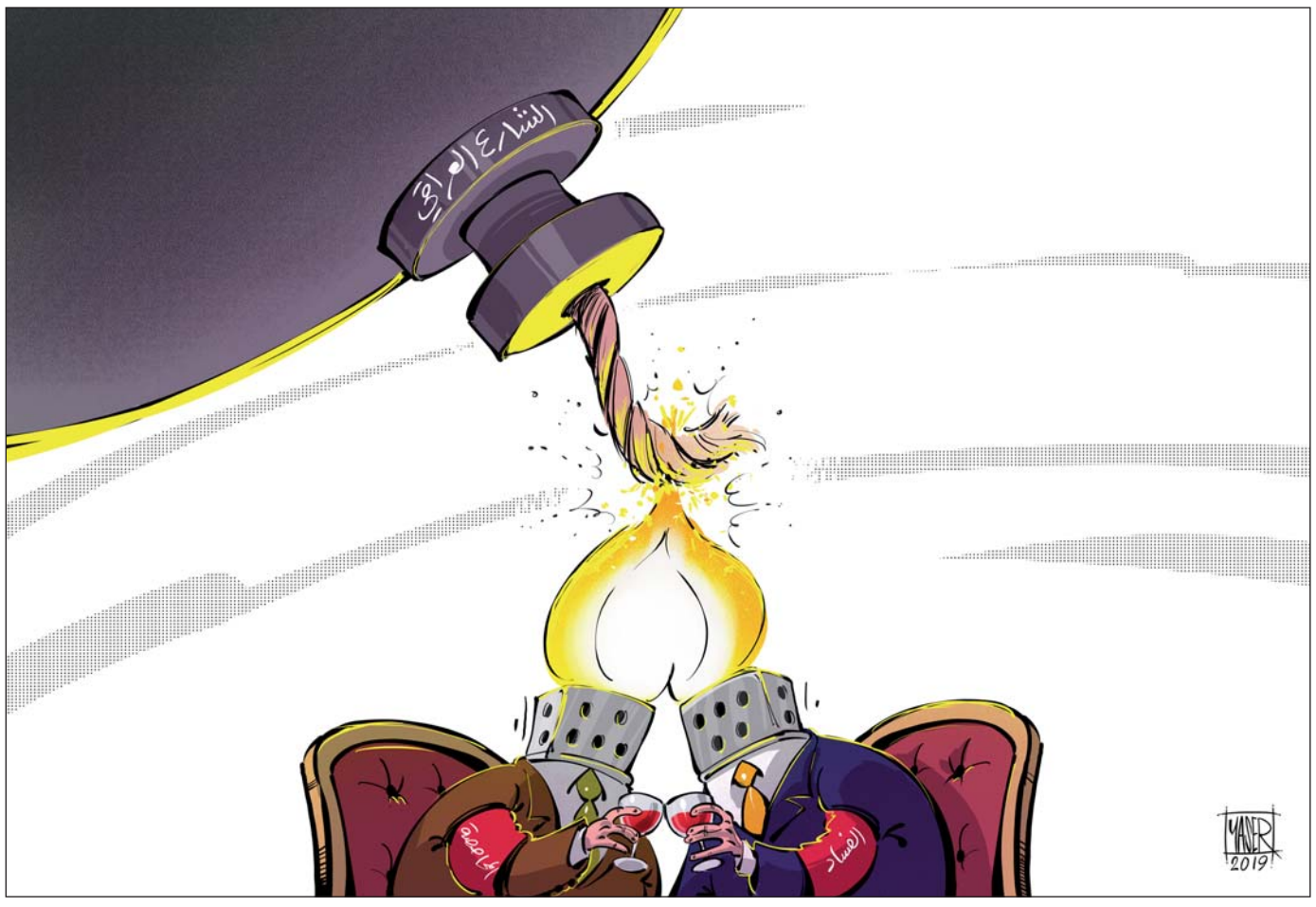


# في يوم الاستقلال العراقي الحزين

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من غرائب المصادفات أن يحل يومُ الثالث من أكتوبر على العراق، وهو يوم الذكرى السابعة والثمانين لاستقلاله وخلاصه من الانتداب البريطاني ودخوله عصبة الأمم في العام 1932، وهو بلا استقلال، وتحت الوصاية والانتداب والاحتلال، من جديد.

ففي الثاني من أكتوبر، وفي الثالث منه، أمطرت الدنيا على الرئيس العراقي برهم صالح برقيات من كثيرين من الرؤساء والملوك العرب والأجانب، تهنئه بيوم الاستقلال الوطني، وتدعو له، شخصيا، بطول العمر، ولشعبه بالأمن والأمان، وبالهناء والبناء والاسترخاء.

وهذه واحدة منها:

"بعث الملك سلمان بن عبدالعزيز برقية تهنئة للرئيس العراقي برهم صالح بمناسبة ذكرى استقلال بلاده، باسمه وباسم شعب وحكومة المملكة العربية السعودية، معبرا فيها عن أصدق التهاني وأطيب التمنيات بالصحة والسعادة لفخامته، ومتمنيا لحكومة وشعب العراق الشقيق مزيدًا من الأمن والاستقرار".

وتذكيرًا لمن نسي أو تناسى، نعود إلى أصل الحكاية. فقد عقدت الحكومة العراقية، وكانت تحت الانتداب البريطاني، مع بريطانيا في الثلاثين من يونيو عام 1930 معاهدة تمهد لإنهاء الانتداب البريطاني على العراق، ودخوله إلى عصبة الأمم. ولكن المعارضة الشعبية الواسعة للمعاهدة المعروفة باسم معاهدة بورتسموث، والتي هتفت فيها الجماهير "نوري السعيد القندرة، صالح جبر قيطانها"، جعلت مجلس عصبة الأمم يقرر في الرابع من ديسمبر عام 1931 تشكيل لجنة خاصة لدراسة طلب الحكومة العراقية الانضمام إليها كدولة مستقلة. وفي الثالث من أكتوبر عام 1932 وافقت عصبة الأمم على الطلب، ليبدأ العراق عهدًا جديدا في تاريخه الحديث.

وكان منتظرا، في يوم الاستقلال المجيد، هذا العام، أن يستفيق العراقيون، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب، ليحتفلوا بهذا اليوم السعيد العزيز، فتقامُ الأفراح والاحتفالات العسكرية والمدنية في كل مدينة وقرية، وتُسيَّر المواكب الشعبية والحكومية، وتصدح الموسيقى، وتتعالى الأناشيد الحماسية، وتُعطل المدارس ودوائر الحكومة ليتمكن جميع المواطنين، جنوبيين ووسطيين وشماليين، من المشاركة في أعراس هذا اليوم الكبير.

وكان مؤملا، بعد سبعة وثمانين عاما من الحرية والاستقلال والإعمار والبناء والعدل والإنصاف والمساواة، والإنفاق المجزي من ثروات الوطن الغزيرة على التعليم والصحة والزراعة والصناعة والتجارة، والعناية بالموهوبين والمبدعين، ورعاية العلماء والخبراء والمخترعين، أن ترى فخامة الرئيس برهم صالح، من على شاشات التلفزيون، وهو بالبزة الرئاسية المزركشة التي يرتديها الرؤساء في الأيام الوطنية السعيدة، محاطا بسابقيْه الرئيسيْن الباقييْن على قيد الحياة، غازي الياور وفؤاد معصوم، ثم رئيس وزرائه الحالي عادل عبدالمهدي، ومعه رؤساء الوزارات السابقون، إياد علاوي وإبراهيم الجعفري ونوري المالكي وحيدر العبادي، ثم كبار رجالات الدولة العسكريين والمدنيين، هادي العامري وقيس الخزعلي وأبومهدي المهندس وفالح الفياض ومقتدى الصدر وعمار الحكيم، وهو يستقبل كبار مهنئيه بهذا اليوم العزيز من السفراء العرب والأجانب، وشيوخ العشائر ورجال الدين. وفي ساحات القصر الجمهوري تصدح الموسيقى العسكرية، وتتعالى زغاريد الأمهات وهتاف الجماهير الفرحين بيوم الاستقلال والنصر المبين.

ولكن، في ذكرى يوم الاستقلال، الثالث من أكتوبر من هذا العام الحزين، أفاق العالم في يوم الثلاثاء الأسود، ويوم الأربعاء الأكثر سوادا، وعلى أصوات المدافع والبنادق وهي تلعلع في ساحات بغداد والناصرية والنجف والديوانية وكربلاء التي هتفت "طهران بره بره، كربلاء حرة حرة"، وعلى هدير سيارات القمع الوطني، وعلى الحرائق ودخان القنابل المسمومة، وعلى العويل والبكاء والصراخ، وعلى طوفان الجموع الثائرة الغاضبة المطالبة بنصيبها من الحياة الحرة الكريمة التي قال رئيس الجمهورية، برهم صالح، للأمم المتحدة إنها قد تحققت في عهده وعهد أصحابه المجاهدين، عادل عبدالمهدي، وكاكه فؤاد حسين، وقبله كاكه هوشيار زيباري، والراحل العم جلال الطالباني، وكاكه مسعود، وسليم الجبوري ومحمد الحلبوسي وأسامة النجيفي وخميس الخنجر، وميليشياتهم وأقاربهم وأتباعهم وأصحابهم أجمعين.

**شعبنا العراقي الشجاع الصبور سوف يفعل ما فعلته شعوبٌ أخرى قبلنا كانت أحوالُها أقلَّ سوءًا من أحوالنا، لكنها لم تصبر طويلا على الظلم والظالمين، وتظاهرت سلما، في البداية، وحين لم تُنصف ولم تُحترم مطالبها، أطلقت ثورتَها عاصفةً شاملة حتى اقتلعت الفساد من جذوره**

ففي يوم الاستقلال من هذا العام سال دم غزير من خيرة شباب الوطن، وسقط جرحى كثيرون، وانهمر في بغداد والناصرية والبصرة والسماوة والنجف وكربلاء رصاص حي أطلقه مسلحون من الحكومة ومن الحشد الشعبي، ومن جواسيس قاسم سليماني، بزعم أن بين هؤلاء المنتفضين مدسوسين، مخربين، مأجورين لأميركا ولقوى الاستكبار العالمي الأخرى للقضاء على دولة الإمام الحسين، وجمهورية وريثه الولي الفقيه.

والمحزن والغريب أن التي انتفضت هي فقط جماهير المحافظات الجنوبية، أما عرب المحافظات السنية، وأما عراقيو المحافظات الكردية الثلاث، فقد اكتفوا بالفرجة على شاشات التلفزيون وموقع فيسبوك، وكأن الذين تساقطوا ويتساقطون برصاص الغدر والخيانة ليسوا أشقاءهم، وكأنهم لم يثوروا من أجل وطن حر سعيد رحيم رؤوف بأبنائه أجمعينَ بلا تمييز ولا تهميش ولا استثناء. وكأن الذين سرقوا ونهبوا وظلموا وزوروا وتآمروا وخانوا لم يصيبوا أحداً منهم بأذى ذات يوم.

وأغلب الظن الذي يشبه اليقين أن شعبنا العراقي الشجاع الصبور سوف يفعل ما فعلته شعوبٌ أخرى قبلنا كانت أحوالُها أقلّ سوءًا من أحوالنا، لكنها لم تصبر طويلا على الظلم والظالمين، وتظاهرت، سلما، في البداية، وحين لم تُنصف ولم تُحترم مطالبها، أطلقت ثورتَها عاصفةً شاملةً لم تهدأ حتى اقتلعت الفساد من جذوره، ورمت بحكامها الفاسدين في صناديق القمامة، برغم كل ما كان لديهم من عساكر ومدافع وقلاع.

نعم، لقد غدر الغادرون بشباب وطننا النجباء الشرفاء الميامين، ولكن غدرهم أيقظ الملايين بعد الملايين من العراقيين، وسوف ينتفضون مجددا. وسوف ينتصرون.